

هل إلى ثورة من سبيل! محمد يوسف عدس

في هذا المقال أحاول قدر استطاعتي أن أنبه إلى خطورة ما نحن مقبلون عليه الآن ، وبخطى سريعة أكثر من أي وقت مضى ، ولا بد أن أكون أميناً فليست هذه أول مرة أنبه فيها إلى مخاطر من هذا النوع الكوني المروع .. الموجه إلى المستضعفين في العالم شرقاً وغرباً .. وشمالاً وجنوباً .. مخاطر ستأكل الأخضر واليابس .. وتحيل المستضعفين إلى أشباح آدمية في مجتمعات خاضعة لأبشع أنواع العبودية .. إلى ضحايا يتمنون الموت فيعز عليهم الموت .. وتحت حكومات هزيلة أو عميلة يعتقد أصحاب المقاعد العليا فيها أنهم يحسنون صنعا ، وهم في الحقيقة يقومون بدور أشباه آلهة ؛ من سلالة أولئك الملوك والفراعنة المتألهين؛ حاج أحد طغاتهم في العراق نبي الله إبراهيم عن ربه ؟ فأجاب النبي: "ربِّي الله الذي يحيي ويميت" فقال الطاغية ساخرا: "أنا أحيي وأميت" .. !

ثم استمع إلى طاغية آخر هو [فرعون مصر] وهو يحاجج نبي الله موسى في حوار قرآني قصير جداً كاشف عن الحقيقة بأبلغ بيان : { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْتِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ! * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } ..

سترى أن الحجاج بين نبي الله موسى وبين فرعون مصر - كما ورد في صفحات القرآن لم يتوقف عند هذا الحد ولكنه تفرع وتشعب ليكشف جوانب أخرى من الحقائق التي اختصت بها مصر وطاغيتها وشعبها في بيان قرآني مذهل ؛ إذ يستعرض لك القرآن أعماق العقلية الفرعونية الباغية المستخفة الغبية: يعود الفرعون المصري فيسأل هازناً كعادته: { قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى } .

ولكن على الرغم من قوة الحجج التي يعصف بها القرآن عقل الفرعون الغبي البليد الهائز .. ظل فرعون يماري ويسخر ويستفتر ، بينما نبي الله موسى ماض في شرحه وفي تفتيحه للآفاق أمام العقول البليدة الغافلة .. حيث يقول متحدثاً عن ربه: { الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } ؛ في إشارة إلى البعث والحساب أمام الله يوم القيامة، وأنه لا استثناء لأحد من خلق الله بمن في ذلك فرعون نفسه ..

وهنا يلفتنا القرآن إلى حقيقة الطغيان والطاغية ؛ فلن يثير الطاغية ويشعل غضبه أكثر من فكرة أنه يتساوى مع عبده الوضعاء ، أو أن يتنبه عبده إلى حقيقة أنهم بشر مثل بقية البشر لهم حقوقهم وكرامتهم في الحياة ، لذلك يكره الطغاة الداعين إلى يقظة الشعوب وعودتها إلى الوعي بعبوديتها الوحيدة إلى خالقها وربها الذي لا إله في الكون سواه .. من أجل ذلك هاج فرعون على موسى وثار عليه ثورة عارمة ، وأنهى الحوار معه بالتهديد

الصريح.. وهذا هو سلاح الطغاة عندما يفتقرون للحجج والبراهين والمنطق.. قال: { لئن اتَّخَذتِ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ }.

كان هذا ولا يزال هو سلاح الطغاة الأبالسة: يستوى في هذا من هبطت عليه السلطة والثروة ميراثاً عن آبائه وأجداده الذين استولوا على السلطة بالسيف القاهر ، ومن سطا على السلطة بالرصاصة والمدفع والدبابة – كلاهما يلجأ إلى تأكيد سلطانه وحماية مسروقاته باستئصال معارضيه ، بوسائل مختلفة منها القتل والتغيب خلف جدران السجون والمعتقلات..

ضربت لهذه الحقائق من الصراع الكوني الأزلئ بنموذجين أحدهما من العراق وما جاورها في الشام [سوريا وفلسطين] ، والآخر من مصر ففي هاتين المنطقتين طالما تفررت مصائر البشرية على مرّ العصور والأزمان . وتدور اليوم فيهما ملحمة تاريخية أخذت تتشكل بوضوح أعظم .. خاصة بعد ظهور طاغية مصر الانقلابي الذي أفصح عن مهمته في بيع مصر وتخريبها وتسخير قواها لخدمة مخططات الإمبريالة الصليبية الصهيونية في أمريكا وإسرائيل ..

والعلامات البارزة في هذا التحول السريع الخطير تبدو كعلامات الساعة الصغرى التي بدأت تتردد بقوة وترتفع نغماتها بشدة في تصريحات الرئيس الأمريكي دونالد ترامب الذي فاق الجميع في بجاحته وصراحته وعنصريته وهو يتوعد الإسلام والمسلمين في أمريكا والعالم بالاستئصال .. كما أخذت أصداؤها تشيع في أدبيات المسلمين والنصارى واليهود . وعلى الأخص في إسرائيل التي تستعد الآن لوراثة السلطة العالمية بترويج نبوءتهم التلمودية التي يتوقعونها في هذا الزمن ، حيث يخرج من بينهم المشيخ المنتظر ليحكم العالم من عاصمته الأبدية المقدسة في جبل الهيكل [بيت المقدس] .

الأصابع الأمريكية الصليبية ، والإسرائيلية الصهيونية تلعب في كل من محور العراق السوري و المحور المصري كما تلعب في كل مكان بالعالم العربي والإسلامي ، ولكن التركيز على هاتين المنطقتين بالذات لأسباب استراتيجية تحتاج إلى توضيح أكثر في مقالة مستقلة .. ولكن دعنا نأخذ الحقائق كما تطرح نفسها في هذا السيناريو الذي يثير الدهشة و العجب من بلادة الحسّ وانعدام الوعي بالحقائق المروعة الصادمة التي تحيط بالعقل العربي والمسلم وكأنه غائب في ثبات عميق..

قد يكون مصدر ذلك كثير من اللغظ والضجيج حول قضايا فرعية ، وثانوية يتم التركيز الإعلامي عليها للتشويش على المقاصد الكلية والأهداف المركزية ؛ من ذلك تدخل أمريكا وإسرائيل وأندنايهما في ليبيا والسودان واليمن ؛ لمحاصرة مصر من جميع الجهات ، و للتغطية على مخططهم في مصر ؛ فالمقصود في النهاية هو مصر بالذات ؛ لتركيعها وتفكيكها وتدمير أمنها الوطني ووحدتها ومستقبلها .. حتى لا تتمكن مرة أخرى من الوقوف على قدميها .. لأن حضور مصر ونشاطها كان دائما بداية لكل نصر حققه العرب والمسلمون على القوى الغازية المعادية للإسلام والمسلمين ، ابتداء من الغزو المغولي التتري على الشرق الإسلامي امتداداً من آسيا الوسطى والعراق إلى الشام ودمشق ، متزامناً مع

الحروب الصليبية في الشام وفلسطين ومصر. فقد كانت مصر هي القوة الصلبة المجمعّة والموحّدة لشتات القوى العربية والإسلامية ، والتي تصدّت للغزوات التتريّة والصليبية وهزمتها في مواقع تاريخية مشهورة .. ولا تزال مصر رغم الجراح والمؤامرات والتخريب الذي لحقها على يد العميل الانقلابي ، قادرة على أن تعود إلى الحياة من جديد لتقوم بدورها التاريخي الذي لا يمكن الاستغناء عنه لأي يقظة أو نهضة أو انبعاث تحرريّ للإسلام والمسلمين.

أزعم أن المعادلة التي تُرَجِّح -الآن- نجاح مخطط التدمير الأجنبي لمصر وتحويلها من دولة إلى شبه دولة أو أشلاء دولة في أقصر فترة زمنية ، تتمثل في هذا الثلاثي المترامن بالصدفة أو بالتدبير: ترمب الأمريكي ، ونتنياهو الإسرائيلي ، وعصابة الانقلاب العسكري .. ولكنني أضيف - بالثقة نفسها- أن الصورة لن تتغير كثيرًا إذا اختفى دونالد ترمب أو نتنياهو ؛ أحدهما أو كلاهما ، وحل محلّهما أمريكي آخر وإسرائيلي آخر .. إلا في عنصر واحد -محتمل- وهو عنصر السرعة فقط ..

أما التغيير الأكيد في الصورة الكلية فلن يتم إلا بالتخلّص من الانقلاب العسكري في مصر ، وإعادة الجيش المصري إلى وظيفته الطبيعية الأصلية في الدفاع عن حدود مصر وسيادتها على أراضيها ومياهاها ، والتخلّص نهائيًا من الطغمة العسكرية التي خطفّت الجيش وشغلته بالسياسة ، وأحالتها إلى أداة باطشة : لحماية السلطة المسروقة من أصحابها الشرعيين الذين انتخبهم الشعب بكامل حريته وإرادته ، ولحماية الثروة المنهوبة التي استولى عليها العسكر، بلا حساب ولا مبالاة .. ولقمع المعارضين وتكميم أفواههم .

ولن يتم هذا التغيير إلا بثورة شعبية شاملة ، ولن يقوم بهذه الثورة إلا شعب مصري واحد يقظ متحد ، وقيادة واحدة واعية مخلصّة لوطنها ودينها ؛ متجرّدة من الأهواء والمصالح الشخصية والمطامع الفئوية والطائفية .. وليس ذلك بكثير على الله إذا أخلصنا له النية وتوجهنا إليه بعقولنا وقلوبنا ، وشكونا إليه عجزنا وقلة حيلتنا ، وطلبنا إليه أن يمد إلينا يد العون والهداية والتوفيق ، إنه نعم المولى ونعم النصير.

myades34@gmail.com

نشر المقال بجريدة الشعب ٢٢ نوفمبر ٢٠١٦م